أحمد لطفي السيد كما عرفته

بين السَّحر والفجر من يوم الثلاثاء الخامس من شهر مارس لسنة 1963 حين ينسلخ النهار من الليل، وينبثق النور من الظلام، تخلصت روح لطيفة من قيدها المادي الغليظ وصعدت إلى مصدرها الأول ومرجعها الأخير:

تلك هي روح الأستاذ الفيلسوف أحمد لطفي السيد، لفظها في غير قلق ولا ألم كما ينسم الطفل النائم الهادئ. وموت الشيخوخة المطمئنة نقلة روحية سعيدة من فناء منقطع إلى بقاء متصل، فهو موت وحياة في وقت معًا. كالشمس تغيب عن قوم فتكون غروبًا في المغرب، وتطلع في الوقت نفسه على آخرين فتكون شروقًا في المشرق.

وشيخوخة لطفي السيد كانت ككهولته وشبيبته سلامًا وطمأنينة لم يكدر صفوها حقد على أحد ولا طمع في شيء، فكانت حياته الوادعة النافعة أشبه بحياة الجدول السلسل الرقراق تفيض على جوانبه الري والخصب من غير هدير ولا طغيان ولا كدر.

كان في كل أعماله العلمية والإدارية والسياسية يستار سيرة العلماء ويستن سنة الفلاسفة، لا يقول قولاً ولا يعمل عملاً إلا في حدود المنطق والخلق والقانون، وكان لعبقريته وبلاغته يرسل القول فيكون مثلاً أو حكمة، ويفعل الفعل فيكون مثالاً وقدوة.

وكان في رزانة الحكيم ووقار الحليم يتحدث أو يناقش فلا يستفزه نزق جاهل، ولا يستخفه غضب مكابر. فإذا اشتد الجدل في حضرته بين اثنين في مسألة فعلا الصوت واحتد اللسان قال لهما: علام الخصومة والخلاف؟ في المسألة رأيان، فأحدكما من رأى والآخر من رأى.

وكان على شفوف بدنه باهر الجلالة ظاهر الأبهة، لا يقبل اللغو في مجلسه ولا يبالغ في التعبير عن شعوره. فإذا ضحك لا يضحك بملء فمه، وإذا عبس لا يعبس بكل وجهه، وإنما هي الابتسامة الحلوة في كل ما يحب أو يكره.

وكان أظهر مزايا لطفي السيد حديثه؛ فقد كان آخر طبقة شهروا ببراعة الحديث من أمثال محمد عبده وسعد زغلول وإبراهيم الهلباوي، فأنت في حضرتهم لا تشتهي الكلام لأن لذتك في أن تسمع، ولا تثير الجدال لأن همك في أن تستفيد. ولطفي السيد

كان محدثًا نقي الصوت حلو النغمة متئد الأداء واضح الجرس فكه اللسان متخير اللفظ، فلو ذهبت تكتب ما يقول لكان قريب الشبه مما تكتب. وكان ينثر في خلال حديثه الكلمة الفرنسية أو اللهجة (الشرقاوية) فتكسبه ظُرفًا ورقة.

وكان مجلسه أشبه بمجلس صديقه أرسطو زعيم المشائين في مماشيه المظللة، أو شيخه الأفغاني إمام المصلحين في قهوته المفضلة، يتوخى فيه الفائدة واللذة؛ فسامعه لا ينفك راضي العقل ريان العاطفة. وكان بارعًا في سلسلة الحديث سريعًا إلى اقتناص المناسبة، فلا تخشى على الحديث في مجلسه أن يبوخ، ولا على الصموت في حضرته أن يحرج.

وكان أسبق معاصريه إلى التجديد فلم تعرف قبلة في الشرق كلمات الحرية والديمقراطية والاستقلالية بمعناها المطلق. وأجلي مظهر لهذا التجديد كان في نزعته السياسية وطريقته الكتابية؛ ففي صحيفة (الجريدة) التي كانت لسانًا لحزب الأمة وكان هو رئيس تحريرها نهج للناس سياسة مصرية خالصة لا تتصل بالدعوة العثمانية ولا بالجامعة الإسلامية.

وفي هذه الجريدة ابتكر أسلوبًا للكتاب لفظه قدر لمعناه، ووصفه طبق لموصوفه، وسبيله قصد لغايته، فكان مذهبًا جديدًا جرى عليه الكتاب والصحفيون إلى اليوم. وكان من سبقه إلى التجديد أن دعا إلى إصلاح الخط العربي وإنشاء المجمع اللغوي وتعليم الفتاة المصرية.

* * * * *

قالوا فيه: إنه أستاذ الجيل، وكان الأصدق الأحق أن يقولوا: إنه أستاذ أجيال ثلاثة، فمنذ أن صدرت (الجريدة) في عام 1908 كان فيها وفي ندوتها مصدر توجيه ومشعل هداية. كان يندو إلى مجلسه صفوة الشباب والطلاب فيفتح قلوبهم للآراء الجديدة، ويهيئ نفوسهم للقيادة الرشيدة، ويجنبهم مزالق التطرف الجامح والتصرف المرتجل: وقرأ لهم منطق أرسطو وسياسته فتخرج عليه طائفة من الكتاب والمحامين تزعموا الإصلاح وقادوا النهضة. وظلت أستاذيته متصلة الأثر من يوم أن خرجت الجريدة إلى الناس إلى يوم أن دخل هو في جوار الله.

كان في السنين الثماني عشرة الأخيرة من حياته الطويلة الخصبة رئيسًا لمجمع اللغة العربية فكان لهذه الأستاذية من قوة الشخصية وحضور الذهن وصدق التوجيه وسعة الاطلاع واستقامة المنطق وحدة النشاط الأثر البالغ في اضطلاع المجمع بعبء رسالته. كان من أفهم الأعضاء لطبيعة اللغة ووظيفة المجمع وحقيقة التطور، يرى كما يرى أن اللغة ملك للمتكلمين بها لا للواضعين لها، فهم أحرياء أن يتصرفوا فيها تصرف الوارث فيما ورث، يعدل ويكمل وفقًا لحالته وطبقًا لحاجته. ففي عهده رد المجمع الاعتبار إلى المولد وقبل السماع من المولدين، وقرب المسافة بين الفصحى والعامية بقبول ما وضع الصناع والزراع والتجار وغيرهم من كل ذي حرفة.

* * * * *

كان تفكيره الحر وتجديده الواعي أصيلين في فطرته ظهر أثرهما على رأيه وهو في رونق شبابه. حدثني رحمه الله عن سبب اتصاله بالإمام محمد عبده قال: كان الشيخ ينتدب في كل عام لامتحان طلاب الحقوق في السنة النهائية، وكانوا قد اقترحوا علينا في امتحان الإنشاء أن نكتب في هذا الموضوع: (كيف كان للحكومة حق عقاب المجرم) وجعلوا زمن الإجابة عن هذا السؤال أربع ساعات على ما أذكر، فكتبت المذاهب الأربعة التي قررها العلماء في هذه المسألة ثم عقبت عليها ففندتها جميعًا ونفيت أن يكون للحكومة (حق) عقاب المجرم لأنها قائمة على القوة لا على الحق. وأسرفت في التدليل على ذلك حتى ملأت الكراسة. ثم خرجت فذكرت لرفاقي ما كتبت فاكتأبوا وقرروا جميعًا أني لا محالة راسب. واشتد من جانبهم اللوم والتقريع حتى ذهب من نفسي كل أمل في النجاح. فلما كان يوم الامتحان الشفوي وقف الشيخ فقرظ موضوعي وكان قد وضع له الدرجة العليا، ولكنه نصح لي أن أقتصد الآن في هذه الآراء إشفاقًا عليَّ. ومنذ ذلك اليوم لزمته.

كان أول يوم اتصلت فيه أسبابي بالفقيد العظيم يوم زرته في مكتبه بالجريدة أنا وصديقاي طه حسين ومحمود الزناتي نشكو إليه فصلنا من الأزهر ونحن في السنة النهائية من الدراسة فيه لخلاف ثار بين الطلاب في درس أستاذنا المرصفي حول فقرة من خطبة للحجاج رواها المبرد في "الكامل"، وكان الخطيب الجريء قد أساء الأدب

في حديثه عن الطواف بقبر الرسول فكفروه لذلك. وكنا نرى أن سوء التعبير يوجب التعذير ولا يوجب التكفير. فلما دخلنا عليه هش بنا وبش لنا وسمع منا وسمعنا منه، ثم قال بلهجته الرزينة: إن الأمر أيسر من ذلك. ورفع سماعة التليفون وقال للشيخ حسونة النواوي وكان شيخ الأزهر يومئذ: إن عندي ثلاثة من طلاب الأزهر فصلتموهم لرأي رأوه. ولعل من الخير ألا تقتلوا في الشباب حرية الرأي ما دامت لا تخالف أصلاً من أصول العقيدة ولا نصًا من نصوص الأحكام. وسأله أن يلغي قرار الفصل ففعل، وانصرفنا من عنده وليس أحد من رجال الفكر وأصحاب البيان أحب إلينا منه.

* * * * *

كانت ثقافة لطفي السيد راسخة الأصل متينة القواعد، أقام ركنها العقلي على فلسفة أرسطو وأفلاطون، وركنها الأدبي على كتاب الله وشعر العرب. كان يحمل القرآن على ظهر قلبه وطرف لسنه، يؤديه آية آية كأنما يتلو في مصحف منشور. وكان كثير المحفوظ من الشعر يستمده من أوعية شتى ويرويه عن أعصر مختلفة، فكنا في مجلس المجمع كلما ندَّ عن ذاكرتنا شاهد من القرآن أو الشعر أسعفنا به.

وليس معنى ذلك أنه وقف في فلسفته عند اليونان وفي أدبه عند العرب، وإنما كان يساير الفلسفة في كل مذهب، ويتابع المعرفة في كل وجه.

ولطفي السيد بعد أولئك كله كان حليمًا رحيمًا يرتاح للخير ويدل عليه، ويجنح للسلام ويدعو إليه. وكان لنشأته السرية وبيئته القروية يسمت سمت الأرستقراطيين في الهندام والمظهر، ويقصد قصد الديمقراطيين في المعاملة والسلوك. وهو الوحيد في علماء العصر الذي طال أجله وحسن عمله، وجمع بين ثقافة النصف الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين.

رحمه الله رحمة واسعة وعوضنا من علمه وفضله خير العوض.